

أثبّت وتيقَّنْ

القديس يوحنا ماكسيموفيتش، رئيس أساقفة شنغهاي وسان فرانسيسكو
نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

أثبت في أمور اليقظة الروحية، لأنك لا تعرف متى سيدعوك الرب إليه. في حياتك الأرضية، كن مستعدًا في أي لحظة لتقدّم له حسابًا. إياك أن يوقعك العدو في شبابه ويخدعك ويُسقطك في تجربة. افحص ضميرك يوميًا. محص نقاوة أفكارك ونواياك.

كان لأحد الملوك ابنٌ شرير. وإذ لم يكن لديه أمل في أن يتغير للأفضل، حكم الأب على الابن بالموت. أمهله شهرًا للاستعداد. ولما مرّ الشهر دعا الأب الابن. ولدهشته، رأى أن الشاب قد تغير بشكل ملحوظ: كان وجهه نحيفًا ومسلولاً، وبدا جسده كله كما لو كان قد تألم.

"كيف حدث هذا التحول يا بني؟" سأل الأب. أجاب الابن: "أبي وسيدي، كيف يمكنني ألا أتغير وكلّ يوم يمرُّ بي يُقرّبني من الموت؟" قال الملك: "جيد يا بني. من الواضح أنك عُدت إلى رشدك، لذا سأعفو عنك. ومع ذلك، يجب أن تحفظ هذا الاستعداد اليقظ لبقية حياتك." أجاب الابن: "يا أبي، هذا مستحيل. كيف يمكنني الصمود أمام التجارب والأهواء التي لا تُعدُّ ولا تُحصى؟"

فأمر الملك بإحضار إناءٍ مملوءٍ بالزيت، وقال لابنه: "خذ هذا الإناء واحمله في جميع شوارع المدينة. سيتبعك جنديان بسيوفٍ حادة. إذا أهرقت قطرةً واحدةً سيقطعان رأسك". أطاع الابن. وبخطواتٍ خفيفةٍ وحذرةٍ سار في الشوارع والجنديان يرافقانه، ولم يُريق قطرةً من الزيت. عندما عاد إلى القلعة، سأل الأب: "يا بني، ماذا رأيت وأنت تمشي في المدينة؟" أجاب الابن: "لم أر شيئاً". "ماذا تقصد بلا شيء؟" قال الملك، "اليوم عطلة؛ لا بدّ وأنت رأيت الأكشاك مع جميع أنواع الحلوى، والعديد من العربات والناس والحيوانات...". قال الابن: "لم ألاحظ أيًا من ذلك. كان كل اهتمامي منصباً على الزيت في الوعاء. كنت خائفًا من سكب قطرة واحدة وبالتالي فقد حياتي".

قال الملك: "حسنًا يا بني. احفظ هذا الدرس في فكري لبقية حياتك. كن يقظًا على روحك كما كنت اليوم على الزيت في الإناء. أبعد أفكارك عما سيزول قريبًا، واحفظها مركزة على ما هو أبدي. لن يتبعك جنودٌ مسلّحون بل الموت الذي يقترب منا كل يوم. كن شديد الحرص على حفظ نفسك من كل التجارب المدمرة". أطاع الابن والده وعاش سعيدًا.

"إشهُرُوا. اثْبُتُوا فِي الْإِيمَانِ. كُونُوا رَجَالًا. تَقَوُّوا." (كورنثوس الأولى ١٦: ١٣). يعطي الرسول المسيحيين هذه النصيحة المهمة لجذب انتباههم إلى خطر هذا العالم، ولدعوتهم إلى الفحص المتواتر لقلوبهم، إذ بدونه يسهل على الإنسان أن يدمر نقاوة إيمانه وقوّته، ويعبّر بشكلٍ غير ملحوظٍ إلى جانب الشر والكفر. تمامًا كما أن أحد الاهتمامات الأساسية هو توحي الحذر من كل ما قد يكون ضارًا بصحتنا الجسدية، كذلك يجب أن يكون اهتمامنا الروحي هو الانتباه إلى كل ما قد يضرّ بحياتنا الروحية وعمَلِ الإيمان والخلاص.

لذلك، قيّم دوافعك الداخلية بعناية وانتباه: أهي من الله أم من روح الشر؟ احذر من تجارب هذا العالم ومن الناس الدنيويين. احذر التجارب الداخلية الخفية التي تأتي من روح اللامبالاة والتهاون في الصلاة، ومن تلاشي المحبة المسيحية. إذا حوّلنا انتباهنا إلى ذهننا، نلاحظ سيلاً من الأفكار والخواطر المتتالية. هذا السيل لا ينقطع. إنه يجري في كل مكان وفي كل وقت: في المنزل، في الكنيسة، في العمل، عندما نقرأ، عندما نتحدث...

يكتب المطران ثيوفان الحببيس أن هذا ما يسمّى عادةً التفكير، ولكنه في الحقيقة اضطراب في العقل، تشتت، وقلة تركيز وانتباه. يحدث الشيء نفسه للقلب. هل سبق لك أن راقبت حياة القلب؟ جرّب ذلك ولو لفترة قصيرة وانظر ماذا ستجد. يحدث شيء مزعج، فتغضب؛ تقع بعض المصائب، فتشفق على نفسك؛ ترى شخصاً لا تحبه، فتزداد العداوة بداخلك؛ تلتقي بأحد نظرائك الذي قد تفوق عليك الآن على المستوى الاجتماعي، فتحسده؛ تفكّر في مواهبك وقدراتك، فتبدأ بالتكبر... كل هذا فساد: المجد الباطل، الشهوة الجسدية، الشراهة، الكسل، الخبث - الواحد منها فوق الآخر، يدمرون القلب. وكل هذا قد يمرّ عبر القلب في غضون دقائق. لهذا السبب كان أحد النساك، الذي كان شديد الانتباه لنفسه، محقّقاً تماماً في قوله إن "قلب الإنسان مليء بالأفاعي السامة. وحدها قلوب القديسين متحررة من هذه الأفاعي؛ الأهواء."

لكن هذه الحربة لا تتحقق إلا عبر عملية طويلة وصعبة من معرفة الذات، والعمل على الذات واليقظة في الحياة الداخلية، أي النفس.

كن حذراً! انتبه إلى نفسك! أبعد أفكارك عما سوف يزول قريباً وحوّلها إلى ما هو أبدي. هنا سوف تجد السعادة التي تنشدها روحك، والتي يتعطش إليها قلبك.

Source: Archbishop of Shanghai and San Francisco St. John. "Stand Fast and Watch". Pravmir. 07 August 2008.
<https://www.pravmir.com/be-careful-watch/>